الفصل الأول

العصر الجاهلى

وصف الحيوان

الناقة — الفرس — البقرة الوحشية — الثور الوحشى — الظليم — العقاب — الذئب

عاش العربى فى جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح ، وتشتد عليها الطبيعة وتقسو ، فكان ينتقل فى سبيل العيش ، ويضرب فى الأرض وراء اللقمة ، فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة كأنه فى ركب الحياة على سفينة تتقاذفه تعلو به وتهبط ، فيلقى مصاعبها ومتاعبها إلى أن يرسو به القدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حيناً من زمن .

وكان سبيله إلى هذا التنقل حيوان يقتسم معه هذا العيش الشديد يقطع عليه المسافة فيرافقه ويعايشه ، ويقضى معه أكثر حياته فيألفه ويحبه ، ويرى فيه أعظم صديق وأنبل رفيق ، يتحمل معه التعب والعناء والسير والسرى ، وقد وجد ضالته هذه فى الناقة والفرس . فالناقة تنيخ بإناخته وتنهض إلى غايته ، تسير كما يريد فى إرقال أو وخد ، تؤنس وحشته وتخفف وحدته ، فيغنيها وينشدها إذا أتيح له أن يغنى أو ينشد ، فالحيوان يتأثر بالموسيقا والحداء .

والفرس صديق العربى فى عيشه كذلك فى الحرب والسلم ، فى الحياة الجادة والهازلة ، حين يحارب الإنسان أو يصطاد الحيوان ، وهو وفى له يصحبه فى السراء

والضراء وحين البأس ، فهو قوته وسلاحه ، وموضع مجده وعزته وفخاره .

لذلك أحب العربي هذا الحيوان ورأى فيه نجدة وملاذاً ، فهو منبع ثروته ومحل إكباره ، يذكره كما يذكر الغزلون المرأة ، يحبه ويستوحي منه . وسنعرض لهذه الصور التي صنعها الشعراء في الحيوان الأنيس ، ونجعلها بعضاً إلى بعض لنتبين الصورة التي رسمتها أخيلتهم ومشاعرهم لهذا الرفيق المخلص والصديق الوفي ، كما نعرض لوصف الحيوان المستوحش بعده ، وهم يطاردونه ويصطادونه ، فيرون فيه الشريد الطريد . وسنبدأ بالأنيس قبل كل شيء كالناقة والفرس .

الناقة

أحب الجاهلي الناقة لأنها تغذيه بلبنها ، وتكسوه من وبرها ، وتطعمه من لحمها ، فهي عنده غذاء وكساء ، وهي حياته في هذه الصحراء . وقد تعاقب على وصفها كثير من الشعراء ، سنتخذ أمثلتهم مما بسطته كتب المحدثين [1] ، لنرى أيهم أجاد في رسمها ووفق في وصفها ، وفيهم بشامة بن الغدير ، وطرفة ، والمسيب ، وزهير ، والمثقب .

أما طرفة بن العبد ، فقد عاش في القرن السادس للميلاد ، وقضى شابا وشقي كثيراً ، ولكنه كان سريع الخاطر حاد الذهن ، فانصرف أول الأمر إلى اللهو والأنس والشرب واللذة ، ولذلك كثر لوامه ، وتباعد عنه إخوانه ، فعاش حزيناً يهيم على وجهه ، يشتغل بالغزو أو يأوي إلى مغاور الجبال ، لا أنيس له إلا هذه الناقة الأمينة الضامرة ، فكان يطوف عليها أطراف الجزيرة ، لذلك طالت صحبته لها ، وكثر نظره إليها ، وأبعد في وصفها حتى أبدع وفاق أقرانه : فأكسب

---

(١) أخص بالذكر منها كتاب « الوصف في العصر الجاهلي » — لعبد العظيم القناوي ، فهو جامع مانع في هذا الباب .

صورتها نشاطاً وحركة ، وكساها بالظلال ،ورسم جسمها فى خطوط كبيرة على دقة واستيعاب ، قال فى معلقته :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدى (١)
أمون كألواح الإران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
طـــا فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد (٣)
وطى محـــال كالحنى خلوفـــه ... وأجرنة لزت بدأى منضد (٤)
كقنطرة الروى أقسم ربهـــا ... لتـــكتنفن حتى تشاد بقرمد (٥)
وأتلعُ نهاضٌ إذا صَعدتْ بـــه ... كسكان بوصى بدجلة مصْعد (٦)
وجمجمة مثـــلُ العـــلاة كأنما ... وَعى الملتقى منها إلى حرْف مبرد (٧)
وعينـــان كالمـــاويتين استكنتـــا ... بكهفى حجاجىْ صخرة قلت موْرد (٨)
وخـــدٌ كقرطاس الشآمى ومشفرٌ ... كسبت اليمانى قده لم يحـــرد (٩)

---

(١) الاحتضار : الحضور – العوجاء : الضامرة التى لحق بطنها بظهرها – الأرقال : السرعة – تروح وتغتدى : أى تصل آخر النهار بأوله فى السير .

(٢) أمون : يؤمن عثارها – الإران : تابوت كانوا يحملون فيه الموتى – نسأتها : زجرتها والمنسأة هى العصا – اللاحب : الطريق البين – البرجد : كساء مخطط .

(٣) النحض : اللحم – المنيف : القصر المشرف – ممدد أو ممرد : أملس .

(٤) طى محال : أى محال مطوية متراصفة دان بعضها من بعض – المحال : فقار الظهر واحدته محالة – الحنى : ج حنية وهى القوس – الخلوف : مآخير الأضلاع – أجرنة : ج جران وهو باطن الحلقوم – لزت : ألصقت – الدأى : ج دأية وهى فقار العنق – المنضد : الملصق بعضه ببعض

(٥) قنطرة الروى : شبه الناقة بها لانتفاج جوفها وشدة خلقها – الأكناف : النواحى – تشاد : ترفع – القرمد : الآجر .

(٦) أتلع : العنق الطويل – نهاض : مبالغة فى النهوض – السكان : دفة السفينة – بوصى سفينة .

(٧) العلاة : السندان – وعى : جمع – الملتقى : حيث تلتقى قبائل الرأس .

(٨) الماوية : المرآة – الكهف : الغار – حجاج : عظم مشرف على العين ينبت عليه الحاجب قلت : نقرة فى الحجر تمسك الماء – المورد : الماء .

(٩) السبت : جلود البقر المدبوغة – لم يحرد : لم يمل فهى شابة لم تمل مشافرها – القد : ما قد من الجلد .

فالناقة ضامرة نجيبة سريعة مرقال ، وذنبها ذيالٌ كثير الوبر يشبه فى ذلك جناحى نسر قديم ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، وفقرات متداخلة تكوّن مع الأضلاع قسياً متراصة . وهى فى صلابتها كقنطرة الروى بناها الصناع بالآجر المتين . إنها ضخمة الرأس طويلة العنق قوية ، ولها خد كالقرطاس الشامى أبيض لا شعر فيه ، ومشفر كالجلد المدبوغ لم يميل فى تقطيعه ، وعيناها كالمرآتين استكنتا فى كهف جبلى .

هذا إذا وقفنا عند ظاهر جسمها وأعضائها ، ولم نتجاوز إلى حذرها وسرعة سيرها ونشاطها ، وطاعتها ولين انقيادها ، فالشاعر شبه كل عضو من أعضائها بشىء وقع عليه حسه كالنسر ومشيد القصور ، والقسى والقنطرة والقرطاس الشامى والجلد المدبوغ والمرآة . وهذه كلها فى متناول خياله أو فى ملك نظره يمد يده إليها حين يريد . وقد بسطها بسطاً ماديا حسيا ، فتصور أجزاءها شبيهة بهذه الأشياء .

وقد رأينا الألفاظ عند الشاعر غريبة جداً ، طواها الزمان وسكت الشعراء عن ترديدها ، وقد كانت مألوفة لعهده فتصرف فيها تصرف المعتز الفخور ، وطرق بها هذه المعانى النادرة ، ورسم أجزاء من الحيوان لم يكن بد من وصفها بهذه المفردات ، ولعله عبد الطريق لغيره من الشعراء فى وصف الناقة والإلمام بهذه التشبيهات المادية ، فأوغلوا فى التصوير وساروا على سننه ، وهم كثير لا يحصون ، سنعرض لبعضهم هنا .

أما بشامة بن الغدير ، فقد قال إن أذن الناقة ضخمة تتبلل بالعرق ، ولها صدر عريض كأنه الطريق الواسعة ، وهى شديدة الوطء كالسيد القوى العزيز يطأ الذليل فى جبروت ، وأنها أسرع من نعامة حين يطاردها الظليم ، وهى فى ضخامتها تشبه السفينة تمخر العباب وتجرى فى اليم لا يدركها أين ولا يلحقها ونى ، مكتنزة اللحم ، قوية الفخذين ، متسعة الصدر ، سريعة السير ، تجرى كأنها تخوض فى عباب متلاطم :

إذا أقبلتْ قلتَ : مذعورة أطاع لها الريح قلعاً جفولا (١)
وإن أدبرتْ قلتَ : مشحونة من الرمد تلحق هيقاً ذمولا (٢)
وإن أعـرضتْ راء فيهـا البصـ ـيرُ ما لا يكلفه أن يفيلا (٣)

فإذا أقبلتْ عليك حسبتها قد تملكها الذعر وركبها الفزع لشدة نشاطها ، وإذا أدبرتْ حسبتها سفينة ، وإذا تحولتْ عنكَ عرفتَ منها ما لا يخطىء معه ظن ولا يخيب فيه تقدير .

والمثقب العبدىّ ، قال فيها كقول زميليه ، فوصفها بوفرة اللحم وكثرة الشحم وسمنة العنق ، سنامها ضخم يشبه قبة القصر العظيم ، ممتلئة الوجنتين ، ثخينة الجلد وأعضاؤها كأعضاء الجمل ، تتسامى بعنقها إذا سارت وكاهلها سامق كالحصن المنيع . وهى كذلك سريعة الجرى جميلة فى إرقالها ووخدها ، تصل الليل بالنهار ، ولا تحوج حاديها إلى زجر أو نغم ، تشبه فى جمالها الثور الوحشى

ولا يصف المثقب أعضاءها كلها ، ولا يبلغ إلى إحصاء كل ما فيها ، وإنما يذكر خدمتها له وقيامها بمهمتها فى صبر وجلد ويقظة ، وهذا كل ما يحتاج إليه السارى والراكب .

وزهير بن أبى سلمى ، يصفها ضخمة الوجنات وثيقة الأعضاء تشبه الجمل كذلك فى خلقها وانبساط هيكلها ، نشيطة سريعة ، تطيع فلا تحتاج معها إلى زجر أو ضرب أو تشويق ، تسير الليل والنهار فى صبر وجلد ، وتعرق حين تغذّ فى مسافات شاسعة واسعة ، وذنبها ريان غليظ ضخم تضرب به ساقيها ، تجرى فى سرعة كالريح لتبلغ بك إلى الهدف وتصل إلى يم النجاة ، تشبه البقرة الخنساء فى جمالها وتكوينها ، كريمة عزيزة جوابة الآفاق ، ذكية الفؤاد ، شديدة الذعر مخافة

---

(١) أطاع لها : هيأ لها — جفولا : مسرعاً .
(٢) مشحونة : مملوءة — الرمد : ج أرمد ورمداء وهى النعامة — الهيق : ذكر النعام — ذمولا : مسرعاً .
(٣) راء : رأى — يفيلا : يخطىء .

أن ينهال عليها السوط ، وزهير فى وصفه لا يرسم الأعضاء كلها ولا يفصل القول فيها ، وإنما يتحدث عن حاجته إليها فى السرعة والصبر وعظيم الخدمة .

والمسيب بن علس ، شارك فى وصف الناقة ، ورسمها ضامرة الحصر واسعة الخطو ، حديدة البصر ، شديدة الإذعان ، ظهرها كقنطرة ملساء ، مكتنزة اللحم ،وسنامها ضخم متعال يشبه أكمة الرمل ، وعنقها مستطيل كالشراع ، قوية الصدر نشيطة تندفع نحو العدو كأنها تقاذف كرة فى أرض منخفضة سهلة ، أو كأنها فى سرعتها امرأة تريد أن تنسج ثوبها وأن تتمه قبل أن يقع المساء وتطوى شراع النهار . وهذه الصورة يعبر عنها فى أسلوب جميل بين يقول :

مرحتْ يداها للنجاء كأنها ... تكرو بكفى لاعب فى صاع [1]

فعل السريعة بادرت جدّادها ... قبل المساء نهم بالإسراع [2]

فدلنا بذلك على ما كان للاعب فى أرض العرب وما للمرأة من عمل فى بيتها حين تختلس ساعات النهار فى نسج الثوب قبل أن يهبط الظلام فيلف الدنيا برداته . وهو لطيف حين يطير بتصويره إلى قبيلته فيرسمها لاعبة لاهية أو يصور النساء فى عملهن اليومى .

وهؤلاء الشعراء يتشابهون فى وصف نياقهم ، فيرسمونها بالضخامة والقوة وسرعة الجرى وشدة الطاعة ويستعملون فى ذلك الصور الحسية المادية ، ويشبهون كل عضو بصورة عرفوها وألفوها فى حياتهم الاجتماعية . يشبهونها فى قوتها بالإبل وهذه معروفة بالسرعة والقوة ، ويرون فيها سبيلاً للنجاة من المفاوز والبوادى ، وسفينة فى عباب الصحراء يركبونها إلى غاياتهم وأهدافهم ، فلا تتوانى ولا تتمهل ولا يدركها تعب أو إرهاق ، على أنها تشاركهم الشقاء فى العيش

---

(١) مرحت : نشطت – النجاء : الإسراع – تكرو : تلعب – الصاع : المنخفض من الأرض .

(٢) الجدادة : ما بقى من خيوط الثوب .

والضنك فى الحياة ، وتقاسمهم الآلام والآمال ، فتحس برغباتهم وتطيع حاجاتهم ، تسرع من غير وقوف ، وتسير من غير زجر ، وتجرى من غير حداء أو غناء .

وقد سبقهم طرفة فوصف ما وصفوا ، وأضاف إلى أوصافهم أعضاء الناقة ، ولكنه أوغل فى غرابة اللفظ وأسر المفردات ، فزاد على زملائه فى خشونة التعبير ، وسبقهم فى دقة التصوير .

الفرس

وإذا كانت النياق وسيلة النقل — كما نقول اليوم — فالخيل كانت للركوب فى الزينة والصيد والحرب ، تشارك الفرسان فى الطعن والضرب واللهو والصيد ، وقد أقبل عليها شعراؤنا فوصفوها بجمالها وسرعتها ، ولمشاركتها فى المواقع والمعارك والمآسى والملاحم والأفراح والأتراح ؛ فهى للترف كما هى للحاجة . وقد جاء فى كتب الأدب أن العرب كانت ترتبط الخيل فى الجاهلية والإسلام معرّفة بفضلها وما جعل الله تعالى فيها من العز والفضل ، فتكرمها وتؤثرها على الأهلين والولد ، وتفخر بذلك فى الشعر والنثر .

وقد نقل فى هذه الكتب أن داود نبى الله أحبّ الخيل حبا شديداً ، فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق أو عتق أو حسن أو جرى إلاّ بعث إليه حتى جمع ألف فرس ؛ وجاء فيها أن سليمان أحبها كذلك . ونسجت كتب الأدب حول الخيل صفحات عديدة تشرح فضلها ، وما قال فيها القدماء من شعر وما حام حولها من أساطير وقصص ، وما اتخذوه لها من أسماء خاصة وأنساب معينة تجدها فى «أنساب الخيل» لابن الكلبى وفى «الحيوان» للجاحظ ، وفى «حلية الفرسان وشعار الشجعان» لابن هذيل وغيرها ، يطول بنا المقام إن عرضنا ما تقول فيها . فحبّ الخيل قديم قبل الإسلام وبعده ، وذلك لتعلق العرب بهذا الحيوان وطول صحبتهم له وشدّة أنسهم به . فلا غرابة إن نشأ ديوان ضخم فى رسمه منذ

الجاهلية ، فقد وصف الفرس كثير ، وفيهم امرؤ القيس ، وعنترة ، والمرقش الأصغر . . .

أما امرؤ القيس ، فقد وصفها فى مواقع عدة من شعره فى المعلقة وغيرها ، فرسمها فى ضخامتها وقوتها ، وصوّر ظهرها وخاصرتيها وساقيها وذنبها ، واكتفى بالخطوط العريضة الكبيرة كما فعل طرفة بناقته ، ولكنه لم يشبه أجزاءها بالقصور والدور والسفن والقناطر ، وإنما عمد إلى الظبى والنعامة والثعلب والذئب والصخر والمطر والجبل ، وتطرق فى وصفه إلى الأطفال والبنات والنساء فشبه أعضاءها بشىء من هذا كله ، أو بما يقومون به من ألعاب وحركات ، واستعان بالتشبيهات على عرض صورة للمسافة والحيز واللون لعله يقربنا من أوصاف فرسه ، ونفخ فى الصورة بروح الحركة والنشاط بما يستلزمه الصيد والطراد فقال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل (٢)
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)
على الذبل جياش كأنّ اهتزامه ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل (٤)
مسح إذا ما السابحات على الونى ... أثرن غباراً بالكديد المركل (٥)

---

(١) أغتدى : أذهب باكراً — الوكنات : ج وكنة وهى عش الطائر وبيته — المنجرد : قليل الشعر — قيد الأوابد : يقيدها بسرعة ركضه — هيكل : عظيم الجرم .

(٢) كر فرسه على عدوه : عطفه — مفر : مبالغة فى الرجوع — الجلمود : الصلب من الصخر

(٣) الكميت : ما لونه بين السواد والحمرة — الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس — الصفواء : الصخرة الملساء — المتنزل : صفة لمحذوف تقديره المطر .

(٤) الذبل : الضمور والضعف — جياش : مبالغة من الجيشان وهو الهياج والغليان — الاهتزام : صوت الفرس فى سرعة السير .

(٥) مسح : مبالغة من السح وهو الصب والدفع — السابح من الخيل : الذى يمد يديه فى عدوه — الونى : التعب — الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة — المركل : الذى وطئته الأرجل .

يزل الغلام الخفّ عن صهواته ... ويلوى بأثواب العنيف المثقل [١]
درير كخذروف الوليـــد أمرهُ ... تتابع كفيه بخيط موصّل [٢]
له أيطلا ظبي وساقا نعامـــة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل [٣]
ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه ... بضاف فويق الأرض ليس بأعزل [٤]
كأن على المتنين منه إذا انتحى ... مداكَ عروس أو صلاية حنظل [٥]

فهو يغدو باكراً قبل أن تهجر الطيور وكناتها، فيعتلي صهوة جواد قد انحسر شعره لشدة سمنه، ماض لا يقف، سريع يسبق الوحوش الأوابد فيقيدها بسرعته وما تستطيع منه فكاكا، وهو يكر فلا يلحق ويفرّ فلا يسبق، يقبل ويدبر شديد الحركة عظيم القوة، يجرى كالحجر الكبير حين يسقطه السيل من أعالى الجبال، ضخم فى جثته، مكتنز اللحم حتى ليسقط اللبد عن ظهره سقوط الماء على الصخرة الملساء؛ يهدر فى ركضه كما يجيش المرجل بالماء. وإذا كانت الجياد تثير الغبار لكلالها فهو ينصب انصباباً، فلا يثبت الغلام الخفيف على صهواته، ويسرع كالخذروف فى يد الصبي.

ولهذا الفرس خاصرتا ظبي وساقا نعامة، يسير كما يسير الذئب، ويجرى كالثعلب الوليد، وهو على ضموره عظيم الأضلاع إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء بين قائمتيه بذنبه الطويل، وإذا نظرت إليه بغير سرج وجدته يلتمع

(١) الصهوات: ج صهوة، وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس — العنيف: ضد الرفيق.
(٢) درير: صفة للفرس الذى يدر الجرى أى يديمه ويتابعه — الخذروف: آلة مستديرة من جلد أو خشب يديرها الصبيان بخيط أدخل فى ثقبها.
(٣) الأيطل: الخاصرة — إرخاء: ضرب من عدو الذئب — السرحان: الذئب — تقريب: ضرب من العدو كذلك — تتفل: ولد الثعلب.
(٤) ضليع: عظيم الأضلاع — استدبرته: نظرت إليه من مؤخره — الفرج: الفضاء بين اليدين والرجلين — ضاف: طويل — أعزل: يميل عظم ذنبه إلى أحد الجانبين.
(٥) المتنان: ما على يمين الفقار وشماله — انتحى: اعتمد — المداك: الحجر الذى يسحق به الطيب — الصلاية: الحجر الأملس.

جلده كما تلمع الصلاية والمداك فى بريق ولعان .

والشاعر فى وصفه الفرس يختار له الضخامة والقوة والصلابة والسرعة، ويختار لوصف ذلك صوراً من الحياة التى يراها والأدوات التى يصبح عليها ويمسى ، فهو كالصخرة المتحدرة مع السيل، وهو فى صوته كالمرجل حين يغلى ، وساقاه كالنعامة، يشبهه حيناً بالثعلب وحيناً بالذئب . وما نرى جاهلياً يستطيع أن يصطاد ألواناً أكثر من هذه ، أو يجمع تشبيهات أوسع ، فقد أوفى على الغاية فى رسم القوة والسرعة . ولعله بذلك نحت تمثالاً للفرس كأجمل ما يصنع المثال فى خطوطه العريضة . ولكنه لم يرسم العينين والوجه والغرة والعروق ، وإنما وصف الحركة والضجة والصوت والنشاط ؛ وذكر الخدمة التى يؤديها لصاحبه فى سرعته وبلوغ غايته . ولعل هذا كل ما يطلب امرؤ القيس من فرسه، يفخر به ويعتز بامتلاكه .

وعنترة بن شداد العبسى ، افتخر بفرسه كذلك ووصفه بأنه ضخم الجسم عظيم الأعضاء ضامر الحصر متلاحق الأقراب ، عظيم الكفل مكتنز اللحم ، ممتلىء بالشحم ، ولكنه على ذلك كله لين العريكة سهل القياد كثير الحركة يتلاعب بحديد لجامه .

والفرس عند عنترة كذلك فى جريه يشبه السيل المنهمر على الصخرة الملساء ، ولكنه وصف وجهه ورسم منخريه كسردابين مفتوحين ، يستكن فيهما الضبع لاتساعهما ، وصوّر حوافره بصلابتها كأنها من صخر ، وجعل ذنبه فى طوله كرداء سابغ لرجل غنى واسع الثروة ، وقد أبدع فى وصف عينيه ومشيته حين قال :

سلس العنان إلى القتال فعينهُ قبلاءُ شاخصةٌ كعين الأحوَل (١)

وكأن مشيته إذا نهنهتـــه بالنكل مشية شارب مستعجل (٢)

---

(١) سلس العنان : لين القياد — قبلاء : ناظرة إلى أعلى — الأحول : الرجل الذى يحرف إنسان عينيه إلى أحد الجانبين .

(٢) نهنهته : زجرته — النكل : حديدة اللجام .

شبهه بالإنسان الأحول فى عينه والشارب المسرع فى سيره ، فرسم الأشخاص واستعار فى لوحته من ملامح وجوههم وتعثرهم فى الشرب ، فكان موفقاً مبدعاً أيما إبداع ؛ فهو قد أضاف إلى صور الفرس تشبيهات جديدة إذا ضممت إلى صور امرئ القيس خرجنا بمتحف فنّى لهذا الحيوان الجميل .

والمرقش الأصغر ، ربيعة بن سفيان ، كان من الشعراء الفرسان وكان يغدو إلى الصيد بفرس صافى اللون ، ضامر البطن أملس الجسم جميل الخلق ، أغرّ الجبهة ، محجل القوائم ، يصيد الشوارد ويقنص الأوابد ، يشاركه حربه وسلمه ، جدّه ولهوه ، ذلول سلس العنان سهل القياد ، لكنه حين يثور تسمع له همهمة وزمجرة كظبية فتية قوية شديدة النشاط لا تهدأ ولا تسكن ، فهو سريع واسع الخطا حين يشدّ على العدوّ ويندفع اندفاع الأتىّ ، فليس فيه عيب ولا يلحقه نقد ، لذلك كان موضع فخره واعتداده واعتزازه ، لا يسبق مطروداً ويلحق بخصمه طارداً ، ويخرج بصاحبه من كل ضيق ، وكذلك تكون الجياد .

والمرقش لا يقف عند أجزاء الجسم وقفة زملائه ، وإنما يصف فرسه بصورة عامة ، ويعدّد منافعه فى لغة أقرب إلى السهولة من شعر أقرانه ، وأدخل فى الموسيقا من معلقات أضرابه ، حين يقول :

على مثله آتى الندىّ مخايلاً ... وأغمز سرّى أى أمرىّ أريحُ [1]

ويسبق مطروداً ويلحق طارداً ... ويخرج من غم المضيق ويجرح [2]

ولن نعرض لشعر الجاهليين فى وصف الفرس فهو كثير تجده فى كتب الأدب والمختارات لا يخرج عن أوصاف هؤلاء الذين ذكرنا ، وربما أضافوا إليها وصف القوائم المحجلة ، وعوذوها بالرقى كما فعل سلمة الغطفانى ، أو جعلوها ذكية

---

(١) الندى : النادى — مخايلا : مختالا — أغمز : أثير .

(٢) مطروداً : يطرده فارس وراءه — طارداً : يطرد غيره أمامه — غم المضيق : شدة الأمر — يجرح : يصيد .

الفؤاد متوقدة الإحساس شديدة الشعور ، فأعاروها من نفوسهم مشاعر الحزن والفرح ، والثورة أو الهدوء ، وذلك رسم لعواطفهم وخلجات أنفسهم ينعكس على ما يرسمون .

والخيل الجياد كانت عندهم — كما قلنا — للصيد واللهو والحرب والقتال ، وكانت زينة وموضع فخر ، لذلك رسموا شياتها وصوّروا سماتها ، ووصفوا خلقها ونبلها ، وكانت أوصافهم موضع بحوث اللغويين وأرباب المعاجم ، فجمعوا منها مادة غنية فى مفردات اللغة لأوصاف الحيوان ، وكتبوا فيها مؤلفات واسعة ، يحسن الرجوع إليها للوقوف على عناية القوم بهذا الحيوان ، ومعرفة ما كانوا يصفون منه ، وموضع اهتمامهم بأجزاء الفرس ، ومبلغ إلحاحهم فى ذلك .

الأوابد

وأما الأوابد ، فقد وصفها شعراء الجاهلية كذلك فأمعنوا فى تقريبها من أذهان السامعين ، وأهم أوصافها ما كان فى شعر لبيد بن ربيعة ،والنابغة الذبيانى ، وسويد اليشكرى .

فأما لبيد ، فهو يرسم ناقته فيشبهها بالبقرة الوحشية فى قوتها وضراوتها ، ثم يستطرد كما يفعل غيره إلى بقرته ، فيقول إن السبع قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى فى القطيع ، فلما عادت رأت أن لا شىء يعوضها وليدها فثارت وهاجت ، وراحت تنوح وتبكى ، وهى ما تفتأ تذكر ذلك العزيز الذى طوته الأرض وغطاه التراب ، وتناثرت أشلاؤه .وزاد الشاعر فى وصف الحزن فجعل الأمطار تشاركها فى عبراتها وتبكى معها لبكائها ، وهكذا اجتمع على البقرة الحزن والبرد والمطر فلجأت إلى جذع شجرة نائية تقضى ليلها فى جزع وفزع ، وظلت على ذلك ثمانية أيام حتى جف ضرعها .

وبالغ الشاعر فى الجزع فتصور أنها سمعت صوتاً أفزعها ، وأنها عرفت أن

الصيادين فى سبيلهم إليها ، وأنهم رسل المنية ، ووقفت تنتظر المعركة بقلب خافق ، فإذا بكلاب الصيد مسترخية الآذان مزينة بالقلائد فى أعناقها قد هجمت عليها ، فوقفت لهن لتذودهن عن نفسها ، تستميت لتعيش ، فلما وثبت عليها كلبة من الكلاب ضربتها بقرنها فأدمتها وكان النصر .

وهذه الصورة الممتعة لم تعرض لأعضاء البقرة ، وإنما وصفت حزنها وشجاعتها ودفاعها عن نفسها واستماتتها فى سبيل حياتها. فهو لم يقصد إلى وصفها وإنما عرض لرسمها كوسيلة لا غاية ، يصف الناقة ويقربها جملة من البقرة الوحشية ليقفنا على حزن الناقة فى مظاهرها وقوتها وشجاعتها ، فقربها بالبقرة . وصورته بليغة فى رسم وحشية الصيادين والبطولة الخارقة التى يمثلها هذا الحيوان فى الدفاع عن نفسه .

وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة فى الشعر الغربى الفرنسى رسمها ألفريد ده فيني لذئب أقبل عليه الصيادون فى الليل وأرسلوا كلابهم إليه فأمسك بأجرأ كلب فيها ولم يحول عنه فكيه حتى فارق الكلب الحياة ؛ رغم الطلقات النارية والمدى الحادة التى كانت تمزق أحشاء الذئب . وليس من فرق بين الصورتين إلا فى الفلسفة التى أضافها الغربى ، إذ امتدح نظرة الذئب إلى الحياة يتركها فى شجاعة وصمت ، فهما كل العظمة وما سواهما جبن وخور ، وللإنسان أن يتخذ منها عبرة . وأما الشاعر العربى قبل اثنى عشر قرناً فلم يفلسف قصيدته .

والنابغة الذبيانى فعل مثل لبيد ، فرسم الثور الوحشى فى مكان قليل الماء عديم الغذاء ، ووصفه ضامراً كالسيف ، قد اجتمع عليه كذلك البرد والخوف والحذر والجوع والظمأ ؛ فهو هلع خائف يتوقع صياداً يكتشف مكانه أو كلاباً تهاجمه . وقد وقعت الواقعة فهجمت عليه الكلاب وكانت معركة حامية طعن فيها الثور بطن الكلب فشقه وضرجه بالدم فأصبح كأنه سفود تركه الشرب على النار فاحمر واشتعل . وكان الكلب يعض قرن الثور ولكن من غير جدوى فقد مات

بعدها وهربت الكلاب يأساً وفزعاً لأنها لم تجد فى الفريسة مطمعاً ، فارتضت من الغنيمة بالإياب .

وقصة النـــابغة كقصة لبيـــد تصف الحيوان المطارد خائفاً جزعاً ، فاستبسل واستماتت فسلمت له الحياة . وقد استخدم النابغة ألواناً جديدة فى وصف الثور ، فجعل قرن الثور يشك فريسته كالبيطار يضرب بالمبضع ليشفى من الداء :

شك الفريصة بالمدرى فأنفذهـــا شك المبيطر إذ يشفى من العضد [1]
كأنه ، خارجاً من جنب صفحته ، سفودُ شرب نسوُوْه عند مفتأد [2]

فذكر الشاربين حول النار والسفود يحترق فيها بعد أن نسوه ، وصوّر البيطار يعالج داء العضد ، وكل هذا من حياة البادية وألوانها .

وسويد اليشكرى ، وصف الثور الوحشى ضافى الذيل أسيل الخدّ أسود الفخذين فى حمرة تكسوهما جمالاً وتكسبهما رونقاً ، ورسمه حين يعرض له الصياد وكلابه ، فيولى عنها مدبرا ويجرى مسرعاً ، فتعجز عن لحاقه وتقعد عن إدراكه لأنه ابن الصحراء وأخو المفازات ، وله أن يسخر من أعدائه وأن يشمت من الكلاب ؛ فالشاعر يرسم مطاردة الصيادين للثور يجرى أمامهم وهم يلحقون به .

وامرؤ القيس ، مثل سويد ، يشبه ناقته والرحل فوقها بالحمار الوحشى ، فيرسم هربه من كلاب الصيد تشدّ وراءه وهو يخلف فى حربه سحاباً من الغبار يكسو الكلاب ثياب الذل والخيبة ، فتقعد عن إدراكه ، وتنحدر إلى ظل أشجار الغضا يائسات من لحاقه لأنه كان يسابق الريح .

والشاعر يصف الحمار جائعاً ظامئاً طاوى الحشا ، خائفاً متوجساً وحذراً

---

(١) شك : طعن — الفريصة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الخاصرة — المدرى : القرن — المبيطر : البيطار — العضد : داء يصيب العضد .

(٢) صفحة : جانب — سفود : حديدة يشوى عليها اللحم — الشرب : جماعة الشاربين — المفتأد : موضع النار التى فيها الشواء .

متربصاً ، لم ينل من الطعام ما يمسك به الرمق ، فهو كالضبع إذ يهيل التراب ليهيء فراشاً لنومه ساعة الظهيرة ثم يغفو كالأسير المقيد .

والطريف فى هذا الوصف أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته وقد أدركته الكلاب وأمسكت به فمزقته تمزيقاً كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان وهم يتبركون بهم ويلتمسون منهم المغفرة :

وأيقنّ إنّ لاقينهُ أنّ يومـــه بذى الرمث إن ما وتنه يوم أنفس [1]

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس [2]

وعلقمة الفحل ، يشبه ناقته بالظليم ، وهو ذكر النعام ، فيقول فيه إن لونه أحمر حتى لكأنه خضب بالحناء وقوادمه قصيرة الشعر ، وفمه ضيق رقيق الشفتين ، أصمّ لا يسمع الأصوات ، وصدره كعصا الأوتار فى تقوسه ، دقيق الرأس والعنق ، ينشر جناحيه ويضمهما أبداً ، ويجتمع إلى فراخه الصغيرة ، وهم بروك ، فكأنهم أصل النخيل يهيجه المطر وتسوقه الريح ، ويدفعه الهواء الملبد بالغيوم ، فهو فى سير متواصل وسرعة لا تماثلها سرعة .

وعجيب أن نقع على هذا الوصف فى الجاهلية ، فهو شامل حافل ، يصور الحيوان بين أولاده على مقربة من عرسه اللطيفة ، ويرسم ما يكون فى هذه الأسرة الجميلة من تحاب وتواد ؛ ولسنا نرى قرب الشبه بين الظليم والناقة إلاّ فى الطيش وسرعة الجرى وخفة الجسم .

وهؤلاء الشعراء وصفوا ظواهر الأوابد ، وتطرقوا إلى وصف بعض الأعضاء ، فلعل مرد ذلك إلى أنهم كانوا يركبون فى صيدها والحصول عليها ليس غير ؛ فلم

---

(١) أيقن : الضمير عائد على الكلاب – ذو الرمث : مكان يكثر به شجر الرمث وهو كالفضا ترعاه الإبل – ماوتنه : صابرنه وجالدنه حتى الموت – يوم أنفس : يوم إرهاق الأنفس .

(٢) يأخذن : يعضضن – الساق : ما بين الكعب والركبة – النسا : عرق من الورك إلى الكعب شبرق : مزق – المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس .

تكن لهم كما كانت الناقة والفرس يعيشون معها ويصبحون ويمسون عليها ، وإنما كانوا يرونها فارة هاربة تعرض عنهم كأنها ما تريد اللقاء ، لما كان يقع منهم من عدوان عليها وسعي في اقتناصها وقتلها ، فهي دائماً جامحة نافرة .

وكان العرب على ذلك ينظرون إلى هذه الأوابد نظرة الحب والإعجاب والرضا ، يريدون أن يحصلوا عليها وما كان ذلك بالهين ولا باليسير فكانوا يطاردونها بكلابهم ويسعون إليها بفرسهم ، وربما جروا مسافات شاسعة في سبيل ذلك يمرون بالماء والصحراء والنبت والسراب ، ويلقون عناء في لحاقها ؛ فإذا طاردوها وقعت معركة فيها نضال وغبار ودماء ، تخرج منها في أكثر الأحيان منتصرة وتقع الكلاب دامية قتلى .

وهذا ما صوره الشعراء فخلفوا صوراً لهذه المعارك لا تقل روعة عن صور النياق والجياد في متحف الوصف الفني ، لو تعمد مصور أن ينقلها من اللفظ والقصيد إلى الريشة والقماش لفاقت كثيراً من لوحات المتاحف العالمية .

* * *

ولم يقف الشعراء عند هذه الحيوانات وإنما تطرقوا إلى غيرها فرسموا لها صوراً خالدة وهي تتعارك فيما بينها ، كما يتعارك الإنسان ؛ ورسموا هذه الحروب التي كانت تنشب بين العقاب والذئب أو بين العقاب والثعلب أو بين الصقر والقطاة . ووصفوا الذئب والغول والحية والثعبان والأسد . وسنعرض بعضه عرضاً سريعاً لننتهي منه إلى أن هؤلاء الشعراء الرسامين خانهم الحظ فحرمهم من مدارس الرسم فلم يمسكوا بالريشة ولم يقفوا أمام القماش ، ولم يغطوا أقلامهم من هذه الألوان وإنما نشئوا على الفطرة فرسموا كل ما رأوه بخيالهم ، فسال في قصيدهم وكان ذلك روعة في الفن لا تبذها روعة في شعر الأمم والأقوام لمثل عصرهم وثقافتهم .

العقاب

رسم امرؤ القيس فى إحدى قصائده فرسه وأراد أن يقرب الصورة وأن يجسمها فى الأذهان فجعلها شبيهة بعقاب ، وراح يرسم العقاب فى أعالى الجبال والقمم وقد لمحت عن بعد ذئباً فانقضت من حالق ، وانحدرت إليه ، فهوت كما تهوى الدلو المثقلة بالماء قد انقطعت عراها فسقطت كجلمود الصخر ، وأرسلت مخالبها إليه وأنشبت أظفارها فيه ، فانسل الذئب من تحتها بعد أن نقب جنبه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور ليختفى وراءها حيناً ، ويثير الغبار ليحجب عنه العقاب أحياناً ، ولكن المنية لم تخطئه ولم ينفعه التهرب فقضى !

وهذه الصورة الممتعة جاءت فى متاحف الفن الغربى صورها الفنانون بالألوان فرسموا انقضاض العقاب على الذئب ، ولكنهم لم يوفقوا إلى هذا الكر والفر بين الحيوان المفترس والذئب الهارب ، لأن الصورة لا تتسع لمثل هذه الحركة ، ولم يبلغوا إلى هذه الحكمة التى أرسلها امرؤ القيس :

صبتْ عليه ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب[1]

وهذا عبيد بن الأبرص يصف العقاب كذلك فوق رابية عالية قد بلغ اليأس منها لشدة الشيخوخة ووفرة الآلام والأحزان ، فإذا كان الصباح أبصرت ثعلباً يجرى فى فلاة قاحلة ، فطارت إليه وأدركته فطرحته على الأرض وجثمت فوقه وقتلته ، وثقبته بمخالبها الحادة ، وأرسلت أظفارها تنقب فى صفحته وهو فى هلع شديد وجزع عظيم ، يصيح ويستغيث ولكن من غير جدوى .

وهى لوحة جميلة كذلك تصور الثعلب فى خوفه ، والعقاب فى انقضاضها عليه فى شيخوختها ، ولكن هذه الصورة شبيهة بأختها لا تختلف عنها أيما اختلاف

---

(١) صبت عليه : اندفعت إليه – أم : قرب

رويناها لنقرب بين الشاعرين ، لعلنا نصور الغاية التى وقف عندها الشعر الجاهلى فى مثل هذه الألوان، كصيد الصقر للقطاة عند زهير بن أبى سلمى وغيره

الذئب

وقد وصف الجاهليون الذئب كما وصفوا غيره من حيوان الفلاة ، فرسموه طريداً شريداً جائعاً يائساً بائساً ، وسنعرض هنا شاعرين صوّراه فأحسنا ، هما : الشنفرى والمرقش الأكبر .

أما الشنفرى فقد رأى فيه حيواناً تتقاذفه الفلوات وتتهاداه المفاوز ، يهوى فى الأودية والجبال باحثاً عن قوت ساعياً إلى طعام ، فيعوى بائساً وينوح هزيلاً ، ولا يردد صداه إلاّ إخوته الذئاب بيض الوجوه شيب الرءوس ، مشقوقة الأفواه كشقوق العصا، عابسات الملامح كريهة المنظر بشعة، لأنها تعيش على الصدى وتتقوت بالسراب ، وتغضى على الجوع وتغض أجفانها على القذى .

والمرقش الأكبر ، يقص علينا أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف أطلس اللون أغبر ، فرمى إليه بقطعة من الشواء حياء لئلا يقال إنه بخيل على جليسه ، فعاد الذئب جذلان فرحاً يهز رأسه غبطة وسروراً كأنه بطل عاد من الميدان بفيء كثير ونصر كبير . وهذه الأبيات تصور نفسية العربى فى الكرم والسخاء وحب الأحدوثة الطيبة وجميل السيرة ، ولكنه لم يصف الذئب فى أعضائه أو أجزاء جسمه .

وهذان الشاعران وصفا الذئب فى يأسه وبؤسه وجوعه وهزاله ، فجعلاه يبحث عن القوت والعيش على موائد الكرام .

* * *

ولسنا نتعرض بعد هذا إلى وصف الغول أو الحية أو الثعبان أو الأسد ،

فهم رسموا الخوف منها والذعر لمنظرها . ولكننا نحب أن نجمل الرأى فى وصفهم للحيوان ، فهم صوروا الأنيس والمستوحش ، فأجادوا فى رسم أعضاء الناقة والفرس وأحسنوا فى وصف ما يكون من الحمار الوحشى أو البقرة الوحشية أو الذئب والعقاب . وقد وصفوا الأنيس كذلك فى قوته وضخامة جسمه وتحمله المشاق وبلوغه إلى الغايات ، ورسموا المستوحش فى جوع وظمأ ويأس وفقر كأنهم يفرقون بين الحيوان الذى يعيش فى كنف الإنسان على عز ورعاية وحب ، وبين الحيوان الذى يعيش هرباً من الإنسان على خوف وذعر ورعب ، أو لكأنهم يجدون فى الآنس صورة للرجل المترف والبطل المناضل والشجاع الفارس ، ويجدون فى المستوحش صورة للصعاليك واللصوص وقطاع الدروب .

ونلاحظ كذلك أنهم استخدموا فى تعبيرهم الألفاظ الجزلة والكلمات الضخمة عند ما وصفوا الحيوان ، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم بعض الشىء ، وخفت وحشية الألفاظ — كما رأينا فى كتاب الغزل والرثاء ، وكما نرى بعد فى فن المديح إذ تشترك فى المعلقة الواحدة أو القصيدة عينها هذه المعانى جميعاً كأنها مجموعة من الأغراض والفنون تجمعها قافية واحدة . ونرى كذلك أنهم عمدوا فى وصف الحيوان إلى البحور الطويلة لعل الأبيات تتسع لمعانيهم كاملة فيستقل كل بيت بالخطوط التى أراد الشاعر بيانها .

ولعلنا أطلنا فى عرض الوصف عند الجاهليين ، وذلك لأننا نعتقد أنه كان دعامة متينة للعصور التالية وأساساً عميقاً يبنى عليه الشعراء فى المستقبل شامخ مجدهم وعزهم ، يقلدونه ويأخذون منه على كر الزمان والأحقاب .